

الأهمية الاقتصادية لإقليم الزاب

ط. سموم لطيفة/أ. بن نعمة عبد المجيد

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

ABSTRACT

Some sources and references agree that the origin of the word Zab and collected "ziban" is the name taken from the Romanian city (Zabi) which was located in the plain of the brood (The Episcopal center in the fifth century BC, 5 BC), the Romans did not occupy this region, but they were satisfied with the establishment of strongholds around Alllems . It was Zab name in old used extensively, so that includes the plains of the brood and cities located on the southern slopes of the Atlas, which is based in hodnah, but is now called the extension is roomy at the foot of the mountains between the plains of the brood and the desert, and the base Zab is Biskra.

-The Zab region is divided into differed three parts: the dorsal Zab or zab of north, Zab of east, and Zab tribal or zab of south.

1-Zab dorsal or zab of north is abutting the west of Biskra includes: El Amery, El Borj, Foughala, Tolga, Ferfar, Zaatcha, Lichana, Bouchagroune.

2-Zab east or Zab Middle is adjacent the east of Biskra includes: Al Outaia, Branis, Chetma, Gratha , Seriana, Tahudha, Sidi Khalil, Ain Nagua, Zriba, Zribet Ahmed, Bades, Elianah , El Khanga(Khaga Sidi Nagi, Al-Fayed.

3-tribal Zab or Zap of the south it includes: Lioua, Sahira, Mekhadema, Bentiou, angle of Sidi Abid, Ourlal, Mellil (M'Lili), Biguo, Feliash, Oumache, Kora, Biskra, Sidi Okba.

-In addition to Them the towns of Sidi Khaled, Ouled Djelal who are linked the tribal Zab but usually they were makes independently, and Daumas add for Zab of north Flaouch. All of these areas rely on palm cultivation and dates production, which requires abundant water.

- Zab region is characterized by an abundance of water to the large valleys do, as its climate is characterized by heat in summer and cold winter

-The Little information available on the Zab's economy, which helped to humanitarian stability during the Islamic period of the fifth century until the eighth centuries AD century, was based mainly on agriculture and trade, while the industry was secondary, the main farm in the Zab region and production is dates, who was representing food The main addition to cereals such as wheat and barley, and a range of fruit trees such as olives, vineyards, pomegranate, in addition to trade, especially the salt trade. Zab known fruits producing , such as vines, olives, grapes, and add all of this to date palm cultivation and dates production primarily. Industry accounted for a significant economic activities, it has been found Biskra's salt, cotton, sugar cane and good linen, olives and other convertible agricultural crops.

- Zab region occupies an important position because of the presence at the crossroads of trade , and as a result was one of the main stations of trading caravans bond between the north and east of the desert and the south, that is the country of Sudan, in addition to the link road between these regions and the north, and then the country of Europe, located to the south bank of the White Sea average, and was thus a passage to be traversed in order to navigate in these different

directions, including benefit largesse of this area of agricultural and industrial products.

1- تعريف مصطلح الزاب: تناولت العديد من المصادر والمراجع مصطلح

الزاب، لكنّها اختلفت في وضع وتحديد تعريفٍ له.

أ- لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور عن أصل تسمية الزاب من: "زَابَ القَرْبَةَ، يَزْأِبُهَا زَأْبًا، وَازْدَأَبَهَا: حَمَلَهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا سَرِيعًا، وَالْازْدِئَابُ: الْإِحْتِمَالُ. وَزَأَبَ الرَّجُلُ وَازْدَأَبَ إِذَا حَمَلَ مَا يُطِيقُ وَأَسْرَعَ فِي الْمَشْيِ، وَالزَّأْبُ: أَنْ تَزَأَبَ شَيْئًا فَتَحْمِلَهُ بَمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ. وَزَأَبَ الرَّجُلُ إِذَا شَرِبَ شُرْبًا شَدِيدًا".¹

وجاء في القاموس المحيط مدلول كلمة الزاب من: "زَابَ زَوْبًا: إِنْسَلَ هَرَبًا، وَزَابَ الْمَاءُ: جَرَى، وَالزَّأْبُ بِالْأَنْدَلَسِ، أَوْ كُورَةً، " منها: محمد بن الحسن التميمي، وجعفر بن عبد الله الصَّبَّاح، أَوْ هُوَ مِنْ زَابِ الْعِرَاقِ، وَنَهْرٌ بِالْمَوْصِلِ، وَنَهْرٌ بِإِرْبِلَ، وَنَهْرٌ بَيْنَ سُورَاءَ وَوَأَسِطَ، وَنَهْرٌ آخَرٌ بِقَرْبِهِ وَعَلَى كُلِّ مِنْهُمَا كُورَةٌ، وَهُمَا الزَّأْبَانِ، أَوْ الْأَصْلُ: الزَّأْيَانِ".²

والملاحظ ممّا سبق أنّ مصطلح الزاب يدل على المكان المرتفع الذي

ينحدر منه الماء ويرتبط بالمناطق المحصورة بين الأنهار والأودية.

ب- اصطلاحاً:

تتفق بعض المصادر والمراجع على أنّ أصل كلمة الزاب وجمعها الزيبان

هو اسم مأخوذ من المدينة الرومانية "زابي" (Zabi) التي كانت تقع في سهل الحضنة (كانت مركز أسقفية في القرن الخامس قبل الميلاد 5 ق.م)، والمعروف بأن الرومان

لم يحتلوا هذه المنطقة، ولكنهم اكتفوا بإنشاء معاقل —والمقصود بها خط الليمس— حولها في ناحية بسكرة وعند المنفذ الجنوبي لأودية الأوراس.³ وقد كان اسم الزاب في القديم يستعمل بتوسع، بحيث يشتمل سهول الحضنة ومدنها الواقعة عند السفوح الجنوبية للأطلس، وهي مقرة وطبنة، ولكنه يطلق الآن على امتداد غير فسيح عند سفوح الجبال الفاصلة بين سهول الحضنة والصحراء، وقاعدة الزاب هي بسكرة.⁴ ويعرفه ابن خلدون قائلا: "وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا، يُعرف كل واحد منها بالزاب، وأولها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة، ثم زاب مليلة، وزاب بسكرة، وزاب قهودا، وزاب بادس، وبسكرة أم هذه القرى كلها"، كما نجده أيضا يعطي الزاب تسمية الواحة.⁵

- وعليه نجد ابن خلدون يربط كلمة الزاب، بكل قرية منه على حدى.

- كما ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي مصطلح الزاب في ثلاث مواضع:

أولها: "أن زاب اسم ملك من قدماء ملوك الفرس، وهو زاب بن توركان بن منوشهر بن إيرج بن أفريدون وهو الذي حفر عدّة أنهر بالعراق فسميت باسمه، وربما قيل لكل واحد زابي والتشنية زابيان وإذا جمعت قيل لها الزواي.

ثانيها: أن الزاب كورة صغيرة يقال لها ريغ، كلمة بربرية معناها السبخة فمن

كان منها يُقال له الريغي.

وثالثها: أن الزاب كورة عظيمة ونهر جرّار بأرض المغرب على البرّ الأعظم

عليه بلاد واسعة وقرى متواطة بين تلمسان وسجلماسة".⁶

أمّا الحسن الوزان فنجدّه يذكر قائلاً في تعريفه للزاب: "الزاب إقليم يقع في وسط مفازات نوميديا، ويبتدئ غرباً من تخوم مسيلة، ويحدّه شمالاً جبال مملكة بجاية، ويمتد شرقاً إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس، وجنوباً إلى القفار التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى ورقلة، وهذه المنطقة شديدة الحرارة رملية، لا يوجد بها إلا يسير من الماء وقليل من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب، لكن عدد حدائق النخل لا يحصى، يشمل الإقليم خمس مدن وعدداً كثيراً من القرى وهي بسكرة، طولقة، البرج، نفطة والدوسن".⁷

ويعرّفه مارمول كرنجال والذي يكاد يتفق مع الحسن الوزان في تعريفه لإقليم الزاب: "الزاب أحد أقاليم صحراء نوميديا يبتدئ هذا الإقليم غرباً بتخوم صحراء مسيلة التي بجوبها أعراب أقوياء، وتحدّه شمالاً جبال بجاية وغرباً إقليم بلاد الجريد التابعة لمملكة تونس، وجنوباً يتاخم الصحاري التي تمر بها الطريق الكبرى الرابطة بين توغرت وورغلة"⁸، ويضيف أيضاً: "منطقة الزاب صحراء ذات رمال حارة، تعجّ بالعقارب والأفاعي السامة، وتنساب عبرها جداول هامة في كثير من الواحات، لكن لا توجد بها أرض صالحة للفلاحة".⁹

—أما العلامة محمد البشير الإبراهيمي فقد تطرق أيضاً إلى تعريف الزاب مشيراً إلى موقعه قائلاً: "موقع زاب إفريقية في جنوب مقاطعة قسنطينة من القطر الجزائري، وهو اسم لإقليم يضيّقه الاستعمال العربي ويوسّعه، وقد كان في القرون الهجرية الأولى إلى القرن الثامن يطلق إطلاقاً واسعاً، حتى يشمل سهول الحضنة ومدنها الواقعة

في سفوح الأطلس الجنوبية وهي المسيلة ومقرة وطبنة الرومانية، وتعرف اليوم باسم بريكة، والمسيلة".¹⁰

ويواصل قائلا: "وهي التي كانت تعرف قبل الإسلام باسم زابي، ثم سُميت بعد الفتح الإسلامي بالمحمدية، ومقرة تقع شرقي مسيلة بنحو مائة ميل، وطبنة تقع شرقي مقرة بنحو ثلاثين ميلا، وهذه المدن يذكرها الرحّالون من المشاركة والمغاربة، ذكرها ابن حوقل الرحالة البغدادي، وذكرها البكري صاحب المسالك والممالك وغيرهما، ووصفوها وصف المعائن".¹¹

أمّا الورتيلاني وخلال زيارته لبسكرة (1179هـ/1765م) فيجعل الزاب: "قرية كبيرة فيها جمعة وعين عظيمة، عند رأس البلد وفيها تضع العرب أثقالها".¹² أمّا الزاب اليوم فهو يطلق على "قطعة صغيرة في سفوح الجبال الفاصلة بين سهول الحضنة والصحراء، وعاصمة الزاب الإدارية والتجارية في يومنا هذا هي مدينة بسكرة"¹³ وقد جاء هذا ردّا من الشيخ محمد البشير الإبراهيمي -رحمه الله- على واضعي دائرة المعارف الإسلامية حول مادة (الزاب).

والزاب كمصطلح يستعمل في بلاد المشرق للدلالة على زاب الموصل بالعراق، وهو عبارة عن واديان ينبعان من جبال الأكراد، أحدهما الزاب الأصغر¹⁴ بين الموصل وإربيل والثاني الزاب الأكبر¹⁵ بين إربيل وكركوك، وكلاهما من روافد دجلة، ومازالا معروفين بهذا الاسم إلى اليوم.¹⁶ وهذا ما أكدّه العلامة محمد البشير الإبراهيمي: وقول المؤرخين "زاب افريقية" يحترزون عن زاب الموصل أو العراق.¹⁷

2-الموقع الجغرافي لمنطقة الزاب وأهم تقسيماته:

2-1 الموقع الجغرافي:

-يذكر ماغلون. ج. (Maguelonne. J.): "أنّ الزاب يقع على خط عرض $34^{\circ} 30'$ شمالا وخطي طول 2° إلى 3° شرقا، يحده شمالا التلال الجنوبية لجبل أحمر خدو (جبل زرزور) وجبال الأوراس وسلسلة تلال بوغزال التي تفصله عن سهل الوطاية، ثم جبال الزاب وقممها الأساسية مثل: جبل موديان (*modiane*)، شائمة (*chaima*) ، بوكراصباحنا (*bou-kra sbahna*)، والدخان، وتستمر في الغرب السلسلة الجبلية نفسها بقممها المرتفعة، والتي تبدأ من جبل الدخان إلى غاية وادي جدي، فاصلة بذلك إقليم الزيبان عن إدارة عمالة الجزائر ثم عن باقي المناطق في الدائرة".¹⁸

ويضيف قائلا: "وفي الجنوب خط ذو صلة وهمي وإداري، يقسم المنطقة المحصورة بين وادي جدي ووادي ايتل، والذي يتركز على وادي جدي من جهة وعلى شط ملغيغ¹⁹ من جهة أخرى، أين يستمر الجانب الشمالي الغربي والجانب الشمالي في حدوده الجنوبية، وأخيرا في الشرق نجد الحدود مجزأة في سهل كبير يمتد بين جبل أحمر خدو والشط، والتي تحتوي على مساحات واسعة معتبرة من الأراضي، تقدر مساحة إقليم الزيبان بأربعمئة وأربعة وستين فاصلة سبعة وثمانين هكتار 464,087".²⁰

2-2 الخصائص الطبيعية:

الزاب متكون من نوعين من الأتربة: أولا المناطق المزروعة الواقعة على العموم داخل أو بمحاذاة الواحات، وثانيا الفضاءات الفسيحة الصالحة للمواشي، أما الأرض فهي مغطاة جزئيا بالرمال، متكونة من رمل ناعم جدا يسهل تفتيته، عموما فإنه (أي الزاب) متشاكل، مطاط، والمشي فوقه سهل وسريع، والزاب غير مرتفع كثيرا عن مستوى البحر (مائة متر في بسكرة)، ويقل بسرعة ما دمنا نقرب من الجنوب.²¹

يتميز الزاب الظهري بهضاب مرتفعة، معظمها حجري، وهي منطقة خصبة بالنخيل المثمر، والكثير من القرى مبنية بمقربة من الينابيع التي تتدفق في كامل المنطقة، وأما الزاب الشرقي الخصب بزروعه فهو سهل واسع تقطعه عدة وديان، تتكون أرضيته من تراب الجمعر (marnes) الأبيض ومن الطين، كما تعلوه قليلا هضاب وأرض رملية تغطي الزاب القبلي.²²

إن طقس المنطقة لطيف أثناء الشتاء، وحار جدا في الصيف حيث تصل درجات الحرارة الدنيا إلى أربعة درجات 4° بينما القصوى فقد تصل إلى خمسين درجة 50°، أما الأمطار فهي نادرة وتحدث غالبا على شكل تساقطات غزيرة، فعلى سبيل المثال: المعدل السنوي في بسكرة مائة وخمسون مليمتر (150 مم) تقريبا، وأما الرياح التي تهب عادة فإن أشدها هو ريح الجنوب الذي يهب صيفا، مما يتسبب في تطاير كميات كبيرة من الرمال.

من بين أهم الوديان التي تسقي الزيان هي: واد جدي، واد بسكرة، والواد الأبيض (أو البيوض) والتي تنتهي كلّها في شط ملغيغ وهو انخفاض واقع جنوب

الزيبان. ينبع واد جدي من جبل عمّور قرب الأغواط، ويواصل جريانه من الغرب إلى الشرق على مسافة خمسمائة كيلومتر تقريبا، حيث يسقي واحات الزاب القبلي خاصة، أما واد بسكرة فيبدأ في هضاب باتنة، ثم ينحدر جنوبا ليسقي قرى القصور، عين توتة والقنطرة، ثم يقطع سهل الوطاية ليسقي بسكرة، أما واد الأبيض فينبع في هضاب المدينة بالأوراس ثم ينحدر إلى السهل حتى سريانة ثم الزيبان باسم واد ابراز.²³

2-3 تقسيم منطقة الزيبان:

تعددت مدن إقليم الزيبان واختلفت تقسيماته بين المؤرخين، فالزاب عامة يقسم إلى: زاب أعلى وزاب أسفل، ولكنهم يجمعون على تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء: الزاب الظهري أو الظهراوي، الزاب الشرقي، والزاب القبلي.

1-الزاب الظهري أو الظهراوي وهو زاب الشمال الواقع غرب بسكرة

ويضم: العامري، البرج، فوغالة، طولقة، فرفار، الزعاطشة، ليشانة، بوشقرون.

2-الزاب الشرقي أو زاب الشرق وهو متاخم للجزء الشرقي لبسكرة ويضم:

الوطاية، البرانيس، شتمة، غراطة (قرتة)، سريانة، تهودة، سيدي خليل، عين الناقة، الزريبة، زريبة أحمد، بادس، اليانة (ليانة)، الخنقة (خنقة سيدي ناجي)، الفايد.

3- الزاب القبلي أو زاب الجنوب ويضم: الليو، الصحيرة، المخادمة،

بنطيسوس، زاوية سيدي العابد، أورلال، مليل (مليلي)، بيقو، فلياش، أوماش، كورة، بسكرة، سيدي عقبة.

ويضاف إليهما: مدينتي سيدي خالد وأولاد جلال اللتان هما مرتبطتان بالزاب القبلي لكن جرت العادة أنهما تقدمان بصفة مستقلة.²⁴

ويضيف دوماس (Daumas) للزاب الظهرراوي مدينة فلاوش.²⁵ جميع هذه المناطق تعتمد على زراعة النخيل وإنتاج التمورّمّا يستلزم وفرة الماء.

إنّ للماء دائما الدور الرئيس في عملية ظهور المدن وتوضعها ونموّها، وارتبط نموّ عدد السكان وامتداد رقعة أي مدينة باستمرار تدفق الماء وكفايته، وإذا أسقطنا شرط سعة المياه، على إقليم الزاب نجده يمتاز بوفرة المياه التي تمّدّه بها الآبار المختلفة منها الأولية القديمة، ومنها المستحدثة ومنها الطيبة العذبة ومنها المالحة، إضافة إلى الوديان والمجاري التي تشقّ إقليم الزاب خاصة تلك القادمة من أعالي جبال الأوراس، والتي لا تزال تمثل إلى اليوم أهم مصادر المياه السطحية بالزاب، حيث تلبي حاجات سكانه سواء للشرب أو لسقي المزارع الواسعة.²⁶

لقد تمّ العمل على إيصال الماء إلى المدينة بإقليم الزاب حتى يسهل على سكانها الحصول عليه دون عسف، وذلك بوضع شبكات توصيل المياه إلى جميع الأحياء، وخير دليل مدينة بسكرة، التي ربطت بقنوات شقّت من النهر المجاور لها²⁷ وهذا ما يؤكده البكري في حديثه عن بسكرة: "وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة منها في الجامع بئر لا تترف، وداخل المدينة جنان يدخل إليه الماء من النهر... وشرب بسكرة من نهر كبير يجري في جوفها منحدر من جبل أوراس".²⁸

وهذا لا يعني أنّ الماء متوفر بشكل كافٍ في كلّ إقليم الزاب، بل هناك بعض المناطق والمدن عانت من قلّة المياه، خصوصا المياه الموجهة للسقي والتي تزيد الحاجة إليها في الفصول الحارة، فيقع النزاع بين السكان والخصومات إلى حدّ الاقتتال.²⁹

وهذا ما يؤكده الحسن الوزان في تعريفه لمدينة البرج: "...لكن الأغلبية من الفلاحين، ونظرا لقلّة الماء بها فإنّ كل فلاح على انفراد يجلب الماء إلى حقله ساعة أو ساعتين من نهار حسب سعة أرضه، وذلك من القناة التي تمدّ الحقول، ولهُؤلاء الفلاحين ساعات مائية يملؤونها، وعندما تفرغ يكون وقت السقي المخصص لهم قد انتهى، ولا يحقّ للمستفيد من الماء أن يحتفظ به حينئذ. وكثيرا ما تهيج الخصومات بينهم بسبب ذلك ويسقط القتلى".³⁰

يبدو من خلال ما سبق أنّه كان للفلاح في منطقة الزاب طريقة معينة في سقي حقله تعتمد على وقت محسوب (ساعات مائية)، يضطر فيه إلى احترام الوقت المخصص له دون تجاوزه وعلى الحصول أيضا على قدر من الماء، إلا أنّ الواضح أنّ بعضا من الفلاحين كانوا لا يلتزمون بذلك ممّا يتسبب في خلق النزاعات والاقتتال أحيانا.

3- اقتصاد منطقة الزاب:

تدّل المعلومات القليلة المتوفرة على أنّ اقتصاد الزاب الذي ساعد على الاستقرار الإنساني خلال العهد الإسلامي من القرن الخامس حتى القرن الثامن الهجريين، كان يقوم أساسا على الزراعة والتجارة. أما الصناعة فكانت ثانوية، والإنتاج الزراعي الرئيسي في إقليم الزاب هو التمر، الذي كان يمثل الغذاء الرئيسي

إضافة إلى الحبوب كالقمح والشعير، ومجموعة من الأشجار المثمرة كالزيتون، الكروم، الرمان، إضافة إلى التجارة خصوصا تجارة الملح.³¹

3-1 الزراعة:

يقترن الحديث عن الزراعة في إقليم الزاب بالنخل، حيث تعتبر زراعة النخيل الزراعة الأساسية التي اختصت بها المنطقة، وارتبط بها السكان عبر الزمن، فكانت مصدر رزقهم وتجارهم. فبلاد الزاب تمثل قسم كبير من الواحات الصحراوية، كما يتوفر إقليم الزاب على عدة عوامل ساهمت في ظهور النشاط الزراعي وتطوره على نطاق واسع. فإضافة إلى الاستقرار البشري وتوفر مصادر المياه الضرورية من الآبار والعيون والأهبار وشق القنوات المائية، هناك مناخ وتربة خصبة ملائمين للزراعة والاستغلال، فكانت المنطقة محاطة بأراض زراعية نادرة المثال في الصحراء، وعرفت منذ القديم بواحات نخيلها، وشهدت حركة اقتصادية نشيطة ميّزها ازدهار الزراعة بشكل عام وبخاصة زراعة النخيل.³²

وهذا ما يؤكده الجغرافيون عامة كصاحب الاستبصار، والبكري والإدريسي، وياقوت الحموي والحسن الوزان، وابن سعيد المغربي يضاف إليهم صاحب فيض العباب ابن الحاج النميري. لذلك فإن من أهم المزروعات كما سبق ذكره نجد: التمر، الفواكه والحبوب.

أ- التمر: تجمع المصادر على أن التمر من أهم المنتجات الزراعية في الزاب، وبأنه المحصول الرئيسي باحتلاله المرتبة الأولى في المنطقة، كما أكدت أيضا انتشار النخيل في مواقع مختلفة وحددت لنا نوعيتها. فقد اشتهرت بزراعتها وإنتاج محاصيلها

بشكل كبير طولقة وبسكرة النخل. وقد كانت بسكرة وباقي المناطق والمدن المجاورة لها قد اشتهرت بغاباتها وبساتينها.³³

يذكر البكري في حديثه عن بسكرة ما نصه: "وبسكرة مدينة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار، وهي مدينة مسورة عليها خندق وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات وحواليها بساتين كثيرة، وفيها أجناس التمور منها جنس يعرفونه بالكسبا وجنس يعرف باللياري أبيض أملس. كان عبيد الله الشيعي يأمر عماله بالمنع من بيعه والتحضير عليه، وبعث ما هنالك منه إليه وأجناس كثيرة يطول ذكرها³⁴".³⁵

ويذكر ابن سعيد المغربي عن بسكرة قاعدة بلاد الزاب: "وفي شرقيها مدينة بسكرة قاعدة بلاد الزاب، وهي بلاد زرع ونخل ومنها تُجلب أصناف التمر إلى حاضرتي تونس وبجاية".³⁶ ويقول صاحب الاستبصار أيضا: "بسكرة وهي مدينة كبيرة، وحواليها حصون كثيرة وقرى عامرة وهي قاعدتها ولها غابة كبيرة كثيرة النخل والزيتون، وجميع الثمار ببسكرة النخل لكثرت به".³⁷ كما يؤكد أبو عبد الله الشريف الإدريسي ذلك أيضا في حديثه عن مدينة نقاوس: "ومن مدينة نقاوس أيضا إلى حصن بسكرة مرحلتان، وهو حصن منيع في كدية تراب عال وبه سوق وعمارة، وبه أيضا من التمر كل غريبة وطريفة".³⁸

ويذكر ياقوت الحموي الشيء نفسه في تعريفه لبسكرة: "فيها نخل وشجر وقسب جيد".³⁹ أما الحسن الوزان فرغم إشارته إلى أن إقليم الزاب لا يوجد به إلا يسير من الماء وقليل من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب، إلا أنه يقول: "لكن عدد حدائق النخل بها لا يحصى".⁴⁰

ونجد أيضا ابن الحاج النميري يؤكد ثراء المنطقة بالنخيل وجودة ثمارها، واعتناء أهلها بها، فعند وصول ركب الملك أبي عنان المريني⁴¹ إلى قصر الوطاية قال: "النخيل التي قامت على رؤوس الرياض فكأنها ملوك، وتحلت بأنداء السحائب فكأنها أجياد وتلك الأنداء ملوك فكشفت عن سوقها لوافد النسيم، ورائت الحديد حتى بعرجونها القديم وروت من جذوعها عن رافع من عناقيدها عن جامع، ومن ثمرها الذي أينع عن نافع"⁴². فعند وصوله إلى بسكرة قاعدة الزاب، وعندما عطف إلى بستان كان خلوة الشيخ أبي يعقوب بأن جمع فيه الاهتمام بمزروعاته قال: "...وحدات مائلة الأغصان قد اختلطت بها ثمرات النخيل والتين والرمان وغير ذلك من الثمرات المتفنة"⁴³.

وعند وصوله لطولقة أيضا لم يمنعه كرهه ليعقوب بن علي المناوي لحكم مولاه الملك من أن يرسم جمال المنطقة وروعة منظر تناسق أشجار النخيل وخضرة المكان في أكثر من تعبير جميل تشعر من خلاله باهتمام الإنسان في طولقة والزاب بإعمار الأماكن بالبساتين والنخيل.⁴⁴

ب- الفواكه والحبوب:

عرف إقليم الزاب إنتاج الفواكه مثل الكروم، الزيتون، العنب، ويضاف هذا كله إلى زراعة النخيل وإنتاج التمور بالدرجة الأولى، فالبكري كما سبق الإشارة إليه سابقا يعتبر بسكرة مدينة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار. ويضيف إليها كل من طولقة وبنطيس فيقول: "وحولها أثمار وهي كثيرة البساتين بالزيتون

والأعناب والنخل والشجر وجميع الثمار"، كما يتحدث عن تمودة أيضا بقوله: "وهي مدينة أهلة كثيرة الثمار والنخيل والزرع".⁴⁵

كما يشير صاحب الاستبصار في حديثه عن مدينة بادس إلى كثرة المزارع بها وزراعة أهلها للحبوب المتمثلة في الشعير وذلك مرتين في السنة، وبأنها كانت أيضا ذات نخل كثير، لقد توفرت بها الفواكه والثمار دون أن يفصل أو يذكر أنواعها: "وبمدينة بادس أرباض واسعة وبسائط كثيرة ومزارع جليلة يزرعون فيها الشعير مرتين في السنة على مياه سائحة ونخل كثير وجميع الفواكه والثمار".⁴⁶ وجاء عن الورتيلاني خلال زيارته لبسكرة كدليل على رخاء المنطقة وتنوع زرعها باعتبارها قاعدة بلاد الزاب ما نصه: "بسكرة كثيرة المياه بين خلال البيوت، فكل باب عنده ساقية من الماء تجري من ماء حلو كالعسل، ونخلها عظيم وغلتها كثيرة أيضا أي زرعها، وكذا الفواكه خصوصا الزيتون فإنه كثير جدا".⁴⁷

ويذكر رشيد بورويبة في حديثه عن اقتصاد الدولة الحمادية وزراعة بعض المناطق التابعة لها الكروم والزيتون، فقد وجدت الكروم على مستوى مدن الغدير، نقاوس وطولقة، أما الزيتون فكان في كل من بسكرة، طولقة وبنطوس، إضافة إلى القطن والذي توفر بطبنة، ونقاوس أيضا.⁴⁸ وهو ما أسهم أكثر في تحريك تجارة المدن، ورفاهية معيشة السكان، خاصة أن المنطقة ضمن إقليم الزاب تتوسط المحور التجاري: الصحراء- التل، فعرف الزاب حركة تجارية داخلية بين السكان، أسفرت عن ظهور أسواق محلية، وحركة تجارية خارجية مع مختلف القواقل التجارية، فكان بروز المنشآت والمرافق الاقتصادية التي ساهمت في توسيع الحركة التجارية ونمو

العمران.⁴⁹ وهذا ما يذكره الورتيلاني عن بسكرة: "إن هذه المدينة من أعجب المدن وأجمعها لمنافع كثيرة مع توفر أسباب العمران فيها، قد جمعت من التل والصحراء".⁵⁰

3-2. الصناعة:

مثلت الصناعة أحد الأنشطة الاقتصادية الهامة، فقد وجد الملح ببسكرة والقطن وقصب السكر والكتان الجيد والزيتون وغيرها من المحاصيل الزراعية القابلة للتحويل.⁵¹ فالبكري وياقوت الحموي يشيران إلى وجود الملح ببسكرة "وبها جبل ملح يُقطع فيه الملح كالصخر الجليل ومنه كان عبید الله الشيعي وبنوه يستعملون في أطعمتهم".⁵² ويضاف إلى الملح القسب بنوعيته الجيدة⁵³، كما عرفت مدينة البرج وجود عدد كبير من الصناع.⁵⁴

3-3. التجارة:

تحتل منطقة الزاب موقعا هاما نظرا لوجودها في ملتقى الطرق التجارية، ونتيجة لذلك كانت إحدى المحطات الرئيسية للقوافل التجارية الرابطة بين شمال وشرق الصحراء وجنوبها، أي بلاد السودان، إضافة إلى الطريق الرابط بين هذه المناطق والشمال، ومن ثم بلاد أوروبا الواقعة إلى الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. وكانت بذلك ممرا لا بد من اجتيازه من أجل التنقل في هذه الاتجاهات المختلفة، والاستفادة مما تجود به هذه المنطقة من منتجات زراعية وصناعية.⁵⁵ ويؤكد صاحب الاستبصار ذلك في ذكره لمدينة بادس قائلا: "ومنه تفرق الطرق إلى بلاد السودان وإلى القيروان وإلى بلاد الجريد وطرابلس وغيرها، وقيطون بياضة قرية كبيرة كثيرة النخل فيها تجتمع الرفاق ومنها تخرج إلى جميع البلاد، وهي آخر بلاد الزاب".⁵⁶

تعتبر بلاد الزاب من الأسواق الهامة لوقوعها على الطريق الرابط بين القيروان والزاب، حيث يمكن التوجه إلى طينة من بسكرة مباشرة وإلى قهودة كذلك، ومن قهودة يمكن الانتقال إلى مدينة باغاي التي تبعد عن بسكرة بأربعة أيام، وهذا الطريق الذي يربط المدينتين يجتاز الأوراس.⁵⁷ وهناك طريق تربط المسيلة بالجريد مروراً ببسكرة، وبأشير والشلف مروراً بمليانة إلى أن يصل إلى تلمسان وفاس، كما ارتبط الزاب بمناطق أخرى، الطريق التجاري الذي يربط سجلماسة بوجدة فتلمسان وتاهرت، ومنها إلى بلاد الزاب وقسطيلة، ومن بلاد الجريد إلى القيروان عن طريق قفصة ثم إلى مدن الساحل التونسي من جهة أو إلى طريق طرابلس عن طريق نفزاوة ثم برقة فمصر.⁵⁸

إنّ لاشتهار الزاب بمعدن الملح كما سبق ذكره، مع النشاط الزراعي وكثرة محاصيله وتنوعها خصوصاً التمور، الزيتون، الكروم، والحبوب، أثره في إحياء الأسواق التجارية وزيادة حركية التجارة.⁵⁹ لقد شهدت منطقة بسكرة وما جاورها من الزاب نشاطاً تجارياً حثيثاً، ومرّت بتخومها العديد من القوافل المحملة بالذهب والجلود وريش النعام والعبيد، متجهة نحو الشمال، أو محملة بالأقمشة والحلي والملح والأحجار الكريمة ومتجهة هذه المرة نحو الجنوب.⁶⁰

الهوامش:

- 1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دط، دت، مج1، ص ص: 443-444 (فصل الزاي المعجمة)
- 2- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، اشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط8، 1426هـ/2005م، ص: 95.
- 3- اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص: 142
- 4- المرجع نفسه، ص ص: 142-143
- 5- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، دط، 1420هـ/1999م، مج6، ص ص: 912-913.
- 6- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، دط، دت، مج3، ص ص: 123-124 (باب الزاي والألف وما يليهما).
- 7- حسن الوزان المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط2، 1983م، ج2، ص ص: 138-142.
- 8- مارمول كرنخال، إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد زينير ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988م، ج3، ص ص: 167-168.
- 9- المرجع نفسه، ن.ص.
- 10- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1954-1952)، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ج4، ص352.
- 11- المرجع نفسه، ن. ص.
- 12- سيدي الحسين بن محمد الورثيلاي، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1394هـ/1974م، ص ص: 75-76

- 13 - محمد البشير الإبراهيمي، المرجع السابق، ص: 353.
- 14 - الزاب الصغير: ينبع هذا النهر في إيران بالقرب من الحدود العراقية، ويبتاز جبال زاغروس ويدخل بلاد ما بين النهرين شمال كركوك ويتصل من ثم بدجلة، طوله 370 كم. ينظر: هنري.س. عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط2، 1411هـ/1991م، ص: 437.
- 15 - الزاب الأكبر: ينبع هذا النهر في تركيا بالقرب من الحدود الإيرانية، ويتصل بدجلة بالقرب من الموصل طوله 430 كم. المرجع نفسه، ن.ص.
- 16 - محمد البشير الإبراهيمي، المرجع السابق، ص: 353.
- 17 - المرجع نفسه، ن. ص.
- 18 - *Maguelonne .J , Monographie géographique et historique de la tribu des Zibans, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine ,ed : Adolphe braham , Paris ,1910, V. 44, pp :213-214*
- 19 - شط ملغيغ: هو عبارة عن بحيرة ضخمة مليئة بالرمال والبقايا العضوية (240 هكتار) تبعد عن بسكرة حوالي 70 كلم جنوب شرق بسكرة. عبد الحميد زردوم، بسكرة عروس الزيان، مطبعة المنار، الجزائر، 2004، ص: 05.
- 20 - *Maguelonne .J , Op.Cit, p :214*
- 21 - *Ouatmani Settari, Zaatcha en 1847(histoire d'une révolte), ed : el-amel , 2013, p :11*
- 22 - *Duboc, Mémoires sur la constitution géologique des Ziban et de l'oued Rir, carrelan, goeury et dolmont, 1850, Paris, pp : 20 ,30.*
- 23 - *Ouatmani Settari, Op.Cit, p :12*
- 24 - *Ibid.pp:10-11.*
- 25 - *M. Daumas, Le Sahara Algérien, Fortin Masson, Langlois et leclercq, paris,1845, P:104.*
- 26 - صلاح الدين هدوش، "المدينة ببلاد الزاب من خلال المصادر العربية من القرن 5هـ/11م إلى القرن 8هـ/14م"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، ع14، مارس 2015، جامعة باتنة، الجزائر، ص: 112.
- 27 - المرجع نفسه، ص: 112.

- 28- أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص: 52.
- 29 - صلاح الدين هدوش، المرجع السابق، ن.ص.
- 30- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 139.
- 31 - صلاح الدين هدوش، المرجع السابق، ص: 113.
- 32 - المرجع نفسه، ص: 113-114.
- 33 - المرجع نفسه، ص: 114.
- 34- هناك أنواع أخرى من التمر مثل: البرني (أو البرقي)، والصيحاني، وقد ساد هذا النوعين خلال العصر الصنهاجي 5/11م، إضافة إلى الخنفس والبهر اللذان سادا في العصر الموحيدي. صلاح الدين هدوش، المرجع السابق، ص: 131 (هامش 69)
- 35 - أبو عبيد البكري، المصدر السابق، ص: 52.
- 36 - أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1970، ص: 126.
- 37- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زعلول، 1985، ص: 173.
- 38- أبو عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تحقيق وتقديم وتعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص: 165.
- 39- ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 2، ص: 422.
- 40- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 138.
- 41 - أبو عنان المريني: ولد 729هـ تقلد حكم دولة بني مرين في المغرب الأقصى وهو ابن تسعة وعشرين سنة، توفي في 759هـ على يد وزيره الفودودي. فيض العباب وإفاضة أقداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص: 130 وما بعدها.

- 42- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص: 427.
- 43- المصدر نفسه، ص: 440.
- 44- سليم كرام، "دولة بني مزني من خلال كتاب فيض العباب وإفاضة أقداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة وإقليم الزاب لابن الحاج النميري"، المجلة الخلدونية، ع: 9، جانفي 2011، بسكرة، دار الهدى، عين مليلة، (طبع وزارة الثقافة)، ص ص: 168-169. -أبو عبيد البكري، المصدر السابق، ص: 52، 72.
- 45- أبو عبيد البكري، المصدر السابق، ص: 52، 72.
- 46- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 175.
- 47- الورثياني، المصدر السابق، ص ص: 86-87.
- 48- رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص: 131، 134.
- 49- صلاح الدين هدوش، المرجع السابق، ص ص: 115-116.
- 50- الورثياني، المصدر السابق، ص: 88.
- 51- صلاح الدين هدوش، المرجع السابق، ص 116.
- 52- أبو عبيد البكري، المصدر السابق: ص: 52. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 1 ص: 422.
- 53- ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ن.ص
- 54- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص: 139.
- 55- عبد القادر بوباية، "الحركة العلمية في منطقة الزاب على عهد بني مزني"، المجلة الخلدونية، ع: 9، جانفي 2011، بسكرة، دار الهدى، عين مليلة، (طبع وزارة الثقافة)، ص: 88.
- 56- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 175.
- 57- صلاح الدين هدوش، المرجع السابق، ص: 117.
- 58- المرجع نفسه، ص: 117.
- 59- المرجع نفسه، ن.ص.

⁶⁰ - محمد أجرتي، أسرة بن قانة ومكانتها السياسية والاجتماعية خلال العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2004-2005، ص: 66.